الأفكار و دورها في النهضة الحضارية للمجتمع الإسلامي

الدكتور محمد الأمين خويلد جامعة الجلفة – الدكتـــــورة أسماء خويلد جامعة الجلفة

الدكتورة سميرة ميسون جامعة ورقلة

إن إرادة المجتمع و قدرته تضفيان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة ــ وهي جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد ــ و هي نفسها تتموضع في شكل سياسة، في صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي، وهي تتغير حسب الأطوار التي تمر بها الحضارة [1].

ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره.

فالفرد يحقق ذاته بفضل إرادة وقدوة ليستا نابعتين منه، بل ولا تستطيعان ذلك، وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه.

و إذا ما ركن لقدرته وحدها و إرادته وحدها فإن هذا الفرد المنعزل و المنقطع عن كل اتصال بجماعته يصبح مجرد قشة ضعيفة ، رغم كل وسائل التزيين الأدبي التي يستعين بها الكاتب الروائي ليحيط بها حياته[2].

وبشكل عام إن خصائص العمل على الصعيد الفردي أو الجماعي تستند إلى العلاقات الداخلية بين مقاييسه الثابتة في العالم الثقافي: الأشياء ــ الأشخاص ــ الأفكار، هذه المقاييس الثابتة تتداخل في نشاط المجتمع عبر جدلية تاريخية تتوافق مع مرحلته التاريخية في كل لحظة من مسيرته، وتتوافق في كل لحظة فيها علاقة معينة، بين الأشياء والأشخاص والأفكار في تركيب العمل، وتكون هذه اللحظات من اللحظات العادية في تلك الجدلية، غير أن هناك لحظات تحدد علاقة أكثر خصوصية، يزيد فيها ثقل أحد هذه المقاييس على المقاييس الأخرى ن عندما يكون النشاط مركزا على الأشياء أو على الأشخاص أو على الأفكار بصورة أكثر خصوصية [3].

و لذلك فإن المجتمع يجسد العوالم الثلاثة : الشيء ــ الشخص ــ الفكرة، ورجحان أحد هذه العوامل هو الذي يميز كل مجتمع عن سواه.

وقد سجل المجتمع التاريخي مراحل ثلاثة: مرحلة ما قبل التحضر، ومرحلة التحضر والدورة الحضارية، ومرحلة ما بعد ما بعد التحضر، والمجتمع الإسلامي مر بهذه المراحل الثلاث منذ العصر الأول وحتى سقوط دولة الموحدين، وهو يعيش عصر ما بعد الحضارة. ومجتمع ما قبل التحضر وما بعد التحضر لا يفتقر للوسائل وإنما للأفكار [4].

إن سائر الأفكار (سواء التي تختص بالإطار الأخلاقي أو التي تتحكم بالإطار المادي) لها لحظة إشراق (لحظة أرخميدس) عندما تطلق صرخة الفرح(أوريك) لدى دخولها العالم الثقافي.

وهي صرخة موسى إذ آنس نارا، وصيحة (باسكال) حين دعي الضمير المسيحي إلى تذكرها في روائع الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر" نار ...نار...فرح !...دموع الفرح".

وهي صيحة (نيتشه) لدى اكتشافه (قانون العود الأبدي)، و هي صيحة (كريستوف كولومبس) ورجال سفينته لدى اكتشافهم جزر الهند الغربية عام 1492م ." الأرض ...الأرض !.." فقد كانوا بذلك يعلنون بها للعالم لا اكتشاف القارة الأمريكية بل دخول الفكرة في عالم الثقافة دخولا قطعيا." الأرض كروية !...الأرض فعلا كروية".

وهي صيحة انتصار فكرة ..." الحرية والمساواة والأخوة " التي أطلقها شعب باريس فأطاحت بسجن الباستيل في الرابع عشر من تموز عام 1789 ويعود رجع ذلك اليوم في التاريخ إلى الإطاحة بعرش بطرس الأكبر في تشرين الأول أكتوبر 1917.

إن الأفكار في لحظة (أرخميدس)تعتمد على حالة روابطها مع النماذج، وهذه الأخيرة تمثل في العالم الثقافي القوالب التي بقيت فيها الأفكار التي تعبر عن نفسها مباشرة في نشاطاتنا.

لكن الزمن يعمل: في ذاتيتنا، في عقلانيتنا، فتعفو به القسمات البارزة لتلك القوالب كما تتمحي بالزمن أحرف مطبعة أو مسبك.

وقد نصل إلى أن نستخرج الأشكال من تلك القوالب ولا نرى فيها غير صورة باهتة للنماذج المثالية فالأفكار الموضوعة قد خانت الأفــكار المطبوعة في القوالب الأساسية [5].

والأفكار التي تتعرض للخيانة تنتقم لنفسها، و هذه الخيانة تتردد أصداؤها في سائر نشاطاتنا وهي تعرضها للانتقام وأحيانا يكون عنيفا على الصعيد الزمني، ومن اليسير أن نفهم ذلك على الصعيد التقني، حيث الانتقام فوري إذا ما انفجرت ماكينة سيئة التصميم أو انهار جسر لسوء البناء.

وفي الغالب فالمجتمعات و الحضارات تنهار بالطريقة نفسها، و ليست كوارث التاريخ في مختلف الأزمان سوى النتيجة التي تكاد تكون فورية لانتقام الأفكار التي خانها أصحابه ، فسقوط قرطاجة لخطأ سياسي من مجلس شيوخها هو المثل المأساوي لكنه ليس الوحيد.

لا بد من احترام علاقات الأفكار بالمقاييس الثابتة للنشاط وإلا بات ذلك النشاط عابثا أو مستحيلا.

و تقع تلك العلاقات في ثلاث مراتب:

1 ــ المرتبة الأخلاقية الإيديولوجية، السياسية بالنسبة لعالم الأشخاص و حتى الفيزيولوجي، إذا أخذنا بعين الاعتبار تحسين النسل.

2 ــ المرتبة المنطقية الفلسفية، العلمية، بالنسبة لعالم الأفكار.

3 ــ المرتبة التقنية، الاقتصادية، الاجتماعية، بالنسبة لعالم الأشياء.

وحينما يفسد واحد من هذه المفاصل الثلاثة للفكرة بتأثير أي عامل من العوامل فينبغي أن تتوقع رؤية نتائج هذا الفساد في أحكام و نشاطات المجتمع وسلوك أفراده [6].

كثيرا ما يرى الفرد منا لقضية ما أن أسبابها متعددة وفي الغالب يكون ذلك التعدد في صورته الخارجية فقط بمعنى أنها تظهر متعددة لأن تأثيرها على شعوره يتكرر في ظروف مختلفة باختلاف الزمان والمكان فكلما أتى منها مظهر جديد لتغير الظروف ظن أن السبب جديد في ماهيته وإذا كنا نقع هكذا في الخطأ بالنسبة للفرد ، فمن الواضح أننا سنــقع فــي الخطأ نفسه و للسبب ذاتــه بالنسبة للسلوك العــام [7].

إن تصفية الأفكار الميتة و تنقية الأفكار المميتة يعدان الأساس الأول لأية نهضة حقة [8] والمعجزات الكبرى في التاريخ مرتبطة دائما بالأفكار الدافعة [9].

وفي عصر التلقين الحديث الفكرة تكون صحيحة إذا ضمنت النجاح، ولذلك فإن المجتمع الإسلامي في مواجهة العصر مدعو لأن يستعيد تقاليده العليا ومعها حس الفعالية، والمفجر الذي يطلق قوى العالم الإسلامي لا يأتي من النظريات الغربية [10].

إن الأمة الإسلامية تعاني صدوعا هائلة والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عملة ليس لها رصيد وأتباعه ينال منهم ولا ينالون ويجار عليهم ولا يجيرون وذئاب الشرق والغرب تغير عليهم فتفترس ما شاءت دون أن يتمعر وجه، إن إحراج يهودي واحد يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان وعداوة السامية، أما مقتل الألوف والمئات من المسلمين في إفريقيا وأوروبا

فالخطب يسير وقد يثار بعض اللغط ثم تنسى المأساة وأول من ينساها المسلمون أنفسهم، ما سر هذا الضياع والشتات؟ ما وراء التفكك والتبلد؟ الحق إن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية وإنها بدأت من قديم ولكن الكيان الحي قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها وقد يصاب بها ويتماسك تحت وطأتها وربما استطاع العيش زمانا وهو يحس بها ويعالجها بمسكنات موقوتة، بيد أنه سيقع فريستها آخر الأمر ما دام لم يتناول لها دواء يجلب العافية ويحسم البلاء [11].

لقد ظل العالم الإسلامي خارج التاريخ دهرا طويلا كأن لم يكن له هدف، استسلم المريض للمرض وفقد شعوره بالألم حتى كأنه يألف جزءا من كيانه ... إن من الواجب أن نضع نصب أعيننا المرض لكي تكون لدينا عنه فكرة سليمة [12].

إن عصر النبوة يمثل الطور الحضاري الموسوم بأروع أشكال التقشف التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام مثلها الأعلى في حياته الشخصية والعائلية وهو يتميز كذلك بالمواقف الأشد بذلا من صحابته ــ كأبي بكر و عثمان ــ الذين وضعوا ثرواتهم في خدمة الإسلام والمجتمع الإسلامي[13].

الرجل الذي يعيش لنفسه فقط لا ينتفع به وطن ولا تعتز به عقيدة ولا ينتصر به دين ولا قيمة لإنسان يكرس حياته لإشباع شهواته وقضاء لذاته، فإذا فرغ منها لم يهتم لشيء ولم يبال بعدها بمفقود أو موجود، مثل هذا المخلوق لا يساوي في ميزان الإسلام شيئا ولا يستحق في الدنيا نصرا ولا في الآخرة أجرا [14].

والمجتمع في الواقع يفرض قواعد وضوابط وقوانين وتقاليد، و حتى بعض الأذواق والأحكام المسبقة هي بالنسبة إليه ليست بأقل حيوية، إذن فإن اطراد اندماج الفرد يتدرج مستجيبا لطبيعته من ناحية، ومن ناحية أخرى مستجيبا لنسق من أصول وقواعد في الحياة يمكن تعريفه وهو في مرحلة متقدمة بمثابة عقد اجتماعي[15].

إن المجتمع لا ينتج في جملته كثيرا ما دام لم يخضع إلا لاتجاهات الحيـــاة اليوميـــة وقواعدها وقد يهب فجأة لينتج حضارة رائعة حين بدأ نشاطه يستقطب حول مجموعة من القيم الخلقية التي ولدت في نطاقه[16].

إن الإسلام هو الدين الأزلي الجامع الذي تواترت رسالات الأنبياء على إظهاره، فكانوا دعاة دين واحد وشرائع متعددة تعاقبت فكان لكل قوم هاد ولكل قوم شرعة ومنهاج حتى ختم الله رسالاته بالرسالة المحمدية المصدقة لدعوات الأنبياء الأولين، هذه الرسالة السمحة تخاطب الناس كافة وهي صالحة لكل زمان ومكان، رسالة جمعت فأوعت واتسعت فأرشدت كل جنبات الحياة الروحية والمادية رسالة حفظت حق الفرد في وفاق موزون بين الحرية الفردية والمصالح

الجماعية، وفاق ينمي مواهب الناس رجالا و نساء في كل ميدان و يسوي بين الناس فلا يعرف تفاضلا يقوم على اللغة أو القومية أو اللون أو الجنس ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الحجرات الآية 13. لقد كفل الإسلام للإنسان حقوقا ثابتة وحريات متعددة كحرية العبادة، حرية التعبير والتنقل وحرية الفكر وحق التملك المشروع والحياة الكريمة [17].

الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، فالحرية النفسية والعقلية أساس المسؤولية والإسلام يقدر هـــذه الحقيقة ويحترمها وهو يبني صرح الأخلاق [18].

في عصرنا هذا وضعت مواثيق لحقوق الإنسان ووضعت قواعد لعلاقات الأمم، ومع أن هذه المواثيق والقواعد بلغت الذروة في الشمول والإحكام، فقد ولدت ميتة، لأنها كانت أشبه بأمنية حلوة صاغها أديب يحسن ترصيع الألفاظ ثم تركها أثرا جامدا في بطون الكتب أو قل أثرا تجري عليه التطبيقات المضادة والسياسات الدامية [19].

الحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة، يشب المرء منذ نعومته وهو يحس بأن كل ذرة من كيانه تنشدها وتهفو إليها و كما خلقت العين للبصر والأذن للسمع وكما خلق لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التي تعتبر امتدادا لوجودها واعترافا بعملها، كذلك خلق الإنسان ليعز لا ليذل و ليكرم لا ليهون وليفكر بعقله ويهوى بقلبه ويسعى بقدمه ويكدح بيده لا يشعر وهو يباشر ذلك كله بسلطان أعلى يتحكم في حركاته و سكناته إلا لله الفرد الصمد ربه و رب الناس أجمعين، بيد أن الناس تظالموا فيما بينهم وطغى كبارهم على ضعافهم ومال الميزان دائما مع ذوي القوة و البطش فحيثما وجدوا حجروا ما أراد الله له أن يتسع [20].

والتأمل اليسير في القرآن الكريم يميط اللثام عن وجه الحق في قيمة الإنسان ووظيفته ومنزلته ورسالته، فالإنسان في القرآن الكريم خليفة الله في الأرض و قد تكررت قصة خلافته في كثير من السور متضمنة أن الله جعله سيدا يطاع ويكرم وأن من يتجرأ على إهانته ليس بأهل لرحمة الله وبـــره [21].

ولذلك فإن المجتمع الإسلامي في مواجهة العصر مدعو لأن يستعيد تقاليده العليا ومعها حس الفعالية، والمفجر الذي يطلق قوى العالم الإسلامي لا يأتي من النظريات الغربية [22]، لأن حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ. ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى [23].

الهوامش :

[1] مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط07، 2006 ، ص 43.

[2] المرجع نفسه، ص 42.

[3] المرجع نفسه، ص 76.

[4] المرجع نفسه، ص 35.

[5] المرجع نفسه، ص 61.

[6] المرجع نفسه، ص 64.

[7] مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، ط06، 2006، ص 69.

[8] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ، دار الفكر، دمشق، ط06، 2006، ص 83.

[9] مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، ص 48.

[10] المرجع نفسه، ص 111.

[11] محمد الغزالي ، سر تأخر العرب و المسلمين ، دار المعرفة، الجزائر، دط2005، ص 6.

[12] مالك بن نبي، شروط النهضة ، دار الفكر، دمشق، ط06، 2006، ص 44.

[13] مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، ص 45.

[14] محمد الغزالي، تأملات في الدين و الحياة، دار المعرفة، الجزائر، دط 2004 ، ص 9.

[15] مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، ص 49.

[16] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ، دار الفكر، دمشق، ط06، 2006، ص 52.

[17] محمد الغزالي، الإسلام و الطاقات المعطلة ، نهضة مصر، دط،2005، ص162.

[18] محمد الغزالي، خلق المسلم ، دار رحاب ، الجزائر، دط،2001، ص28.

[19] محمد الغزالي، كيف نفهم الإسلام، نهضة مصر، ط4، 2006، ص 17.

[20] محمد الغزالي، الإسلام و الاستبداد السياسي ، دار المعرفة ، الجزائر، دط 2004 ، ص 72.

[21] محمد الغزالي، نظرات فـــي القرآن، نهضة مصر، ط6، 2005 ، ص 51.

[22] مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، ص 111.

[23] المرجع نفسه، ص 41.